

القضية المصرية

فى طورها الأخير

١ - العون الدولى

نستطيع أن نحدد القضية المصرية ونحصرها فى جملة واحدة . فالواقع أن القضية المصرية عبارة عن سلسلة اعتداءات من جانب إنجلترا ، تتبعها سلسلة تسليمات من جانب مصر . فى هذه الجملة ينحصر معنى القضية المصرية . غير أننا لا نغنى بالتسليم من جانب مصر أن ذلك يعطى إنجلترا فى مصر حقاً شرعياً ، ولا أن اعتداء إنجلترا على مصر يكسب هذا الاعتداء صبغة شرعية . والحق أن اعتداء القوة فى كل المعصور لم يكسب المعتدى حقاً مشروعاً — ولا أفقد الأمة المعتدى عليها حقوقها الأبدية ، بل هو حالة زائدة على الحالة الطبيعية التى تكونت فى مفهوم الشعوب وتحددت بأن لكل أمة حق الحياة والحرية . ومن الطبيعى أن يصطبغ الاعتداء الواقع من جانب القوى على أمة ضعيفة بصبغة دولية ، مادام لهذا الاعتداء علاقة بالمصالح القائمة فى الدنيا لمجموع من دول الأرض . لهذا اعتبرت القضية المصرية منذ أول اعتداء إنجلترا على مصر ، قضية دولية ، عقدت من أجلها المؤتمرات ووقعت المعاهدات ، وصرح بشأنها سياسة إنجلترا تصرىحات عديدة ، لم يقصد بها إلا أن تطمئن الدول ذوات المصالح فى الشرق على مصالحهن مع وقوع الاهتداء الفعلى على مصر . وظل العون الدولى ذا أثر ما فى تحديد القضية المصرية ، إلى أن زار الملك ادوارد السابع فرنسا وعقدت على أثر زيارته هذه معاهدة سنة ١٩٠٤ التى أطلقت يد فرنسا فى مرا كس بمنزل ما أطلقت يد إنجلترا فى مصر .

فقدت مصر بذلك العون الدولى . ولكنها لم تفقد قضيتها الصبغة الدولية . فان بمجرد وقوع مصر على ذلك الطريق العالمى الذى يربط بين الشرق والغرب ، كاف لان يجعل قضيتها دولية الى أبد الآبدين . ما يؤثر على هذا الموقع من

معاهدة ولا اعتداء ولا تصريح سياسى ولا شىء مما يجرى هذا الجرى . لان
ماربطته الطبيعة لا تحله الماحكات الانسانية .

كانت فرنسا أول الدول التى ناوت انجلترا في مصر . فلما أمنت على
مراكش وامنت على أن تكون حرة في اعتدائها على شمال أفريقية ، وغالت
يدها عن مساعدة مصر دولياً في حل قضيتها ، فقدت مصر بذلك العون الدولى
وكانت دول الوسط لا تتطلع الى هذه الاعتداءات الا كما يتطلع شخص الى
بناء يقام من الورق لا يلبث أن ينهار اذا زلزلت الارض من تحته . وكانت ألمانيا
الاصبع المحرك لهذه السياسة . فعمدت الى فكرة أن حرباً عالمية تهزم فيها انجلترا
وفرنسا كافية لان تبدل كل نظام الاستعمار الذى قام في القرن التاسع عشر وتنقله
بكل ترائه من يد انجلترا وفرنسا الى يد ألمانيا . وهذه الفكرة أفقدت مصر عوناً
دولياً كان من الممكن أن تعتمد عليه . وكانت تركيا رجلاً مريضاً تطببه السياسة
الألمانية ، فكانت تكيل له السم الزعاف في جرعات معسولة .

بهذا فقدت مصر العون الدولى . على أن بعض الناس قديذهب في تفسير
هذا الامر الى حد الاعتقاد بأن فقدان العون الدولى فقدان لدولية القضية المصرية
بالذات . وهذا أبعد ما نشأ في السياسة المصرية من النظريات عن حقيقة الواقع .
فإن الفرق بين فقدان مصر العون الدولى وبين أن قضيتها دولية ، كبير . غير أن
فئة من السياسيين روجوا لهذه النظرية ، لا لشيء الا ليجدوا لانفسهم مبرراً
يدخلون به مع انجلترا في سلسلة من المفاوضات العقيمة التى نعتقد بحق أنها ان
تكن قد أفقدتنا بعض الحقوق من الوجهة النظرية البحتة ، فانها كانت أفعل من
غيرها في تغيير مجرى الفكرة الوطنية وصرفها في متجه جديد ، أضراً أكثر مما نفع .

«*»

٢ - المؤتمرات الامبراطورية وعهد السلام

وكانت الحرب اعظمى ، فتحطمت تركيا ، وهزمت ألمانيا ، وانحلت النمسا
وأطلقت يد فرنسا وانجلترا في العالم تفعلاً به كيف شاءا استعماراً واستغلالاً .
وأخذت النظريات الجديدة تظهر في أفق السياسة الدولية . فعمدت انجلترا

الى الامبراطورية الاستعمارية تدمغها بطابع جديد ، فقالت بفكرة الدائرة المرنه التي بشر بها لورد ملنر وروجها في أنحاء الامبراطورية البريطانية ، ثم نشأت فكرة استشارة المستعمرات المستقلة في سياسة الامبراطورية . كل هذا لتقاوم انجلترا الفكرة الاصلية التي قامت عليها عصبة الامم . فكونت انجلترا بهذه السياسة عصبة امبراطورية صغرى تواجه بها عصبة الامم الكبرى ، وقيدت نفسها ازاء عصبتها الصغرى ببعض قيود وهمية ، أخذت تحتج بها كما صادفت من الازمات ما يعاند سياستها التقليدية التي جرت عليها طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وكان من الطبيعى أن تغل يدعصبة الامم عن مصر وعن الامم التي يشابه مركزها مركز مصر ازاء الاستعمار الاوروبى بمقتضى ما وضعت فرنسا وانجلترا لهذه العصبة من نظمات لم تصبح بها عصبة الامم أكثر من خير من الاخبار ، أو وهم من الاوهام ، وذلك فى السياسة العالمية العملية على الاقل . وكان من الضرورى أن تستشير انجلترا مستعمراتها المستقلة فى أمر النظام الذى تسير عليه مصر ، وكان من الطبيعى أن يتقيد الانجليز ، ولو فى الظاهر ، بما تؤدى اليه هذه الاستشارة من النتائج . فلما أرادت مصر أن ترفع صوتها ازاء اعتداء انجلترا على حريتها مرة أخرى فى مؤتمر لوزان الاخير ، وكان لابد لهذا المؤتمر من أن يتناول أشياء حيوية تتعلق بمستقبل مصر وحقوقها ، جابهتها انجلترا فى المؤتمر بأن مصر حلقة فى سلسلة الامبراطورية وأن لانجلترا أن تتكلم عنها . وهذه المتناقضات فى مجموعها تكون فى نظر انجلترا وفى نظر الدول ما يدعونه القضية المصرية . وكذلك سيكون شأننا اذا نحن أردنا أن نرفع صوتنا بالاحتجاج لدى الدول التى تتفاوض الآن فى عقد عهد السلام العام . فان انجلترا سوف تجابهنا بما جابهتنا به فى الماضى أمام مؤتمر لوزان ، ونخرج من هذا المؤتمر كما خرجنا من المؤتمر الاول .

هذه الاشياء فى مجموعها لا تفقد قضية مصر صبغتها الدولية ، بل هى دليل على اننا فقدنا العون الدولى لا غير . والفرق بين الحالتين كبير كما ترى .

٣ - المفاوضة مع فقدان العون الدولي

لا جرم أن كل مفاوضة تقع بين أمة ضعيفة اعتدى على استقلالها وبين الأمة التي وقع منها هذا الاعتداء ، يكون عقبا غير منتج ، وعلى الاخص اذا فقدت الأمة المتمدنى عليها كل عون دولى ، فى حين أن الأمة الغاصبة ، رغم قوتها ، تحوز أكبر قسط عرفة التاريخ من القوة الدولية .

هذه النظرية على بساطتها احتاجت الى زمان طويل جداً ، اذا اعتبرنا السرعة التي سارت بها حوادث السياسة المصرية خلال السنوات العشرة الاخيرة ، لكي تثبت فى أذهان بعض السياسيين . غير أن الاغلبية الساحقة من المشتغلين بحل القضية المصرية والرجال المسؤولين فى الحكم ، لا يزالون حتى اليوم فى شك من صحتها . ولا ندرى بطبيعة الحال ان كان هذا الشك أمراً يلجأ اليه لتبرير خطة معينة ، أم أنه ناتج عن إقتناع سوف يغير شيئاً من خططنا السياسية . على أن الازمة الاخيرة التي قامت عقب رفض المعاهدة التي قدم بها ثروت باشا بعد مفاوضات الطويلة ، قد أثبتت بما لا سبيل الى ادحاضه ، أن هذه النظرية البسيطة لا تزال تحتاج الى كثير من الجهد لكي تقبلها عقول السياسيين .

يقولون بأن مصر مادامت قد فقدت دولية قضيتها ، وما يقصدون فى الواقع إلا أنها فقدت العون الدولى ، فلا بد لها من أن تفاوض . يقولون هذا القول غير ناظرين الى كثير من الاعتبارات العامة . وهم فى نظرنا أن فقدان العون الدولى أجدر به أن يكون سبباً لان نبتعد عن المفاوضة ، لا أن تقدم عليها . اذا روعيت هذه الاعتبارات ، واذا كنا قد استطعنا أن ننتفع من تجاربنا الماضية فى مفاوضاتنا العديدة ، وجب علينا أن لانفكر فى مفاوضة جديدة ، بل تعين علينا أن نعمل من طريق آخر ، نستطيع به أن نستمد العون فيه من أنفسنا ، مادامنا قد فقدنا العون الدولى .

٤ - المسيح والاسخريوطى

لما عقد مؤتمر فرساي في فرنسا ليقرر معاهدة السلام بعد الحرب العظمى ، وتقدم الدكتور ويلسون بمشروعه الكبير الذى شمل فيما اشتمل عليه عهد عصبة الامم ونظرية التقرير المصير ، جالس ويلسون عن يمين مسيو كليمينصو ، ثم فرنسا ، وجلس عن شمال اليمر مستر لويد جورج . وأخذ مستر ويلسون يدلى بفكرته الاساسية فى العصبة وفى تقرير مصير الشعوب ، وأخذ لويد جورج يحور فى الاسس التى أرادها مستر ويلسون حتى فاز وكليمينصو بتقرير مبدأ الانتدابات ، كما فاز بتصريح ويلسون المعروف عن مصر . هنا قال كليمينصو كلمته المشهورة : « خيل الى أنى أجلس فى مؤتمر الصلح . والمسيح عن يمينى ، ويهوذا الاسخريوطى عن شمالى » .

ولا جرم أن يهوذا الاسخريوطى الذى أبطل سعى المسيح فى مؤتمر فرساي ، هو نفسه الذى تقدم على مفاوضته الآن . فاذا نسينا ذلك نكون قد نسينا المبدأ الاساسى الذى يجب أن يقوم عليه عملنا فى سبيل تحرير بلادنا .

.....

٥ - الامبراطورية البريطانية وتصريح ٢٨ فبراير

نريد أن تقدم للكلام فى علاقة الامبراطورية الانجليزية باعتبارها نظاما سياسياً بتصريح ٢٨ فبراير المعروف ، بمقدمة وجيزة .

فى العصور الاولى وفى حدود العصور الوسطى ، اضطر الناس بعقضى الاعتبار التى قامت فى أفق الاجتماع البشرى الى استخدام العبيد ، واستمر نظام الرق كقاعدة من القواعد التى قام عليها نظام الجمعية . ومضى هذا النظام قائماً حتى بدأ الاسياد المستعبدون يشعرون بأن نظام الرق أقل فائدة لهم ، من الوجهة المادية بالضرورة ، من نظام التحرير . لهذا بدأت فكرة تحرير العبيد تتكون فى الرؤوس ، لا باعتبار أنها فكرة مثالية نزع اليها الانسان شفقة ورحمة باخوانه فى الانسانية ، ولا باعتبارها مبدأ سامياً جديراً بأن يعتنقه الانسان بعد أن تهذب وعدين ، بل باعتبار أنها النظام الوحيد الذى يجب أن يحل محل الرق ،

ليعود بأكبر فائدة محققة النفع على المستعبدين وأصحاب القوة . إذن لم يكن تحرير العبيد تحريراً بالفعل ؛ بل تحريراً بالاعتبار . اعتبر الرقيق حراً ، فقيل بأنه حر . ولكن بقيود اقتصادية واجتماعية جعلته في حالة هي أشبه الحالات بالرق والاستعباد . وإن نصت القوانين والمعاهدات على أنه حر .

كذلك كان حال إنجلترا معنا في تصريح ٢٨ فبراير . فلقد صارحنا غرانفيل بأننا أرقاء مستعبدين وأن علينا أن نطيع بلا مناقشة . وصارحنا ادوارد غراي بأن الاحتلال باق إلى الأبد . ورمينا بالحماية في أبان الحرب . فلما انتشع الغبار عن أن هذا النظام لا يعود على إنجلترا بأي نفع مادي اضطرت مجبرة على أن تغيره بنظام آخر قائلة إن الحماية نظام غير مرغوب فيه . والحقيقة أنه غير مرغوب فيه من جانبها كما هو غير مرغوب فيه من جانبنا . لهذا أعلن استقلال مصر مشروطاً على تحفظات فيها كل ما تقتضيه مصالح الامبراطورية الانجليزية من الاحتياطات الضرورية وغير الضرورية .

هذا هو مركز الامبراطورية الانجليزية أراء مصر في تصريح ٢٨ فبراير . غير أن هذا التصريح لم يستغل كل الاستغلال من جانب إنجلترا . انا هي تريد استغلاله بأن تعقد معنا معاهدة دفاعية هجومية ؛ وأن يصبح مركزها في مصر شرعياً بعد أن يكون اغتصاباً . هنا يتحرر العبد نظرياً واعتباراً . ولكنه يبقى عبداً نفعه أكبر من ضرره .

٦ - حملة مرشان : الجنوب أم الشمال ؟

في ذلك العهد الذي لم تكن مصر قد قدمت فيه بعد العون الدولي ، وكانت فرنسا أكبر ع ضد لمصر في مقاومة النفوذ الانجليزي ، قام الجنرال مرشان الفرنسي بحملة باغت فاشودة ورفعت هنالك الراية الفرنسية . وكانت هذه الخطة لدى الواقع خطة يقصد بها ترويج سياسة فرنسا الاستعمارية . وأقل ما فيها أنها انذار من جانب فرنسا لانجلترا ؛ محصلة أن التنازع على الاستعمار في قلب المستعمرات أمر قد يعود بالفشل على الدول المستعمرة ؛ كما أنه من الجائز أن يستغل من جانب الامم المستعمرة أرضها استغلالاً يؤدي إلى استقلالها استقلالاً فعلياً .

كان من نتاج ذلك أن عقدت معاهدة ١٩٠٤ وبدأت إنجلترا تفكر في أن مصر كما أنه من الجائز أن تغزى من الشمال فكذلك من الجائز أن تغزى من الجنوب . وكان بجوارها في السودان فرنسا من الغرب وألمانيا في الجنوب الشرقي . وإن إنجلترا لتعلم ماهي ألمانيا وما هي المخاطر التي تتعرض لها إنجلترا في مصر أن استطاع جيش مدرب على النظام الحديث أن يثبت أقدامه على شاطئ النيل في الجنوب .

لهذا عملت إنجلترا على أن تنفرد بالسودان فضربت بمعاهدة ١٨٩٩ عرض الأفق الأوسع واستقلت بالسودان دون مصر . وكان هذا الاعتداء الجديد نتيجة لحوادث ماضية ، ولتفكير طويل في أيهما أنسب للدفاع عن مصر الشمال أم الجنوب ؟ كلاهما مناسب ، وكلاهما ضروري . فالسودان من الجنوب والاسطول في الشمال . وأحيط بمصر ، فأصبحت كالمعصم يحيط به السوار

٧ - النتيجة : موقفنا الآن

الامر بسيط جدا ، والموقف على دقته بين جلي . أمة ضعيفة تقع أرضها في طريق أكبر أمبراطورية تعضدها عصبة الأمم وكل دول أوروبا ، لا يمكن أن تنال بالمفاوضة استقلالاً . بل كل ما يمكن هو الوصول إلى تعديل في الموقف السياسي يقلل من ضغط الغاصب زماناً محدوداً . حتى إذا تغيرت الأحوال واحتاج الأمر مع تغييرها إلى تعديل جديد ، رجع الضغط السياسي بنسبة ما تقتضيه الحال ، ليفوز الأقوى بالتعديل الذي يرغب فيه ، ويتمشى مع مصالحه .

بوليطيقوس